الباب الثانى

ظهور الإسلام
والعلاقات مع شرق أفريقيا

لقد كان من الطبيعى أن نشهد بعد ظهور أنوار الإسلام والدعوة القرآنية توسعًا عربياً، وتوثيقاً فى الروابط القائمة بين عرب الجزيرة والساحل الشرقى لأفريقيا؛ حيث ظهر عامل آخر غير العامل التجارى، حيث كان ظهور الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى بداية لصفحة جديدة من تاريخ العلاقات بين العرب والحبشة، وفى هذا الدور قام العرب المسلمون بالدور الإيجابى فى هذه العلاقات؛ خاصة وأن مملكة أكسيوم كانت فى طريقها إلى الانهيار، إذ كان تعرض المسلمون الأوائل لإيذاء قريش، دافعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفكير فى هجرة اتباعه إلى الحبشة، ومن هنا فإن هجرة المسلمين إلى الحبشة تطرح سؤالا لماذا الحبشة ؟ فإنه من البديهى أن نعرف أن هذه الهجرة، لم تتم عشوائيا، وإنما كانت ثمرة بحث عميق فنحن عرفنا أن أرض الحبشة متجر القريشيين، وكانوا يجدون فيها أمناً وسلاماً ومتجراً حسناً، ثم أن هذه الفترة التى تمت فيها الهجرةكانت فترة استمرار للعلاقات بين ساحل البحر الأحمر، ولقد كانت الرحلة سهلة، فهؤلاء المهاجرون لم يجدوا أدنى صعوبة فى عبور الحر الأحمر والانطلاق إلى الحبشة؛ فقد تسير لهم مركبان نقلاهما إلى الحبشة، وهذا يدل على استمرار العلاقات فى هذه الفترة بين بلاد العرب والحبشة؛ فإذا أضيف إلى هذا سهولة وصول أخبار النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة، واستمرار وصول الوفود إلى النبى، لأدركنا أن العلاقات كانت طيبة بين ساحلى البحر الأحمر، ولم تكن العلاقات تستمر على هذا النحو من السهولة واليسر، إلا نتيجة طبيعية للظروف، التى كانت تحتم وجود هذه العلاقات؛ فظروف الحياة القاسية فى شبه الجزيرة العربية وسهولتها فى الحبشة تجعل هجرة اليمنيين والحجازيين إليها سهلة مستمرة.

ومهما يكن من أمر فإن المسلمين كانوا على وعى بحماية المسيحية، وكيف أن الأحباش كان من همهم تحطيم الوثنية العربية فى الشمال، وفى ضوء هذا كله نرى أن النبى عليه السلام يرسل بعثة استطلاعية، لتعرف أحوال البلاد، وتحسس رغبة النجاشى فى قدرته على حماية المسلمين، ورغبته فى وصول عدد كبير من المسلمين إلى الحبشة، ومن هنا كان قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.

وفى هذا المجال أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم، فى السنة الخامسة من البعثة ٦١٤م، وفداً إلى ملك الحبشة، واستغرقت رحلة هذا الوفد حوالى أربعة أشهر، مكث منها

شهرين أو ثلاثة بالحبشة، عاد بعدها إلى مكة، ولما اطمأن الرسول صلي الله عليه وسلم على مستقبل المسلمين بالحبشة وموقف السلطات الحاكمة هناك منهم، أذن للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر إليها فى العام نفسه من الصحابة ونسائهم وأولادهم مائة واثنان وثلاثون.

وقد ذكر الرواة أن النجاشى أراد أن يتثبت من حقيقة هؤلاء، الذين قدموا عليه، فما كان منه إلا أن أرسل وفداً إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وهو مازال فى مكة، كما أن ملك الحبشة أراد أن يتعرف حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأرسل وفدا لمقابلته فى مكة، وذلك ليسمعوا كلامه ويروا صفاته وكان عدد أعضاء ذلك الوفد اثنى عشر، وقيل خمسون فردا، وقيل بضع وستين، وقيل سبعون رجلا، سبعة منهم قساوسة وخمسة من الرهبان وقيل بالعكس، وهم الوفد الذى حين ظهرت استجابة أعضائه للرسول صلى الله عليه وسلم، قال لهم أبو جهل مع نفر من قريش: خيبكم الله من ركب، وقد رجع هذا الوفد إلى النجاشى وحدثه بما رأى، ولا شك أنهم أخبروا بروح تنطوى على الإعجاب، ونتم عن الود، وبذلك صادف المسلمون قبولا لدى ملك الحبشة، فأذن لهم بالهجرة إلى بلاده.

ورحب بكل الذين جاءوا إلى بلاده، وسيجيئون إلى دياره، وهكذا لم يكن رجوع هذه البعثة الاستطلاعية لإشاعة سرت فيهم أن أهل مكة قد أسلموا، كما زعم بعض الرواة، ومن هنا كان المهاجرون فى حماه وتحت رعايته، فتدفق العرب والمسلمون إلى بلاد الحبشة آمنين مطمئنين، ومن المرجح أنهم لم يرحلوا جمعاً واحداً إلى الحبشة، بل هاجروا على دفعات، وليس بوسعنا أن نعرف متى بدأت كل دفعة منها الهجرة، ولا متى عادوا من الحبشة، فإن عودتهم كانت أيضا على دفعات وربما، كانت آخر عودة لهم عام فتح، فى السنة السابعة للهجرة ،عام ٦٢٨م.

ومن هنا فإن منطقة شرق أفريقيا كانت أسبق بقعة فى العالم القديم، فى استقبال الدعوة الإسلامية الخالدة؛ ذلك لأن الهجرة الأولى للمسلمين حين اشتدت عليهم مضايقات وإيذاء كفار قريش وإيذائهم للمسلمين، هاجروا إلى الحبشة، ومروا فى طريقهم بساحل أرتيريا، ودعوا القوم هناك لدين الإسلام وتعاليمه السمحة، وكان على رأس المهاجرين جعفر ابن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذا فإن الأفارقة قد استقبلوا القوم الذين حملوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أول رسالة إلى النجاشى إمبراطور البلاد، وكانوا أول من آمن برسالة الحق، ولقد كان ذلك قبيل الهجرة النبوية إلى

المدينة المنورة بخمس سنوات، وهناك فتحت شرق أفريقيا أبوابها بحنان وحب للمسلمين المهاجرين، فى سبيل إعلاء كلمته، وذلك بعد هجرتهم من ظلم الطاغوت من أهل مكة.

وهكذا أحدث الإسلام انقلاباً خطيراً فى حالة العرب بوجه عام، وتاريخ الساحل الشرقى لأفريقيا بوجه خاص؛ فقد لاحظنا أنه لم يكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة بشرق أفريقيا، وإنما كانت الصلات تقتصر فقط على عمليات التبادل التجارى، وما ينبع ذلك فى بعض الأحيان من استقرار مؤقت فى المراكز التجارية، التى أقامها العرب لغرض التجارة، على أن الأمر قد تغير تغيراً تاماً بظهور الإسلام؛ إذ ظهر عامل آخر غير العامل التجارى، نتج عن محاولة العرب الاستقرار الدائم.

ولقد ساء قريش أن ينعم المسلمون المهاجرون إلى الحبشة بالأمن والطمأنينة، ولذلك أوفدت إلى النجاشى سفارة، ومن هنا أسرعت قريش على نحو ما هو معروف، فأرسلت بعثة تحمل الهدايا لإحباط المسلمين هناك، وكان على رأس سفارة قريش عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة، وكانت لهما معرفة بالحبشة وأهلها، وكان غرض قريش من هذه السفارة إحباط أعمال المسلمين فى الحبشة، وإقناع النجاشى بالتخلى عنهم، لكن على الجانب الآخر فإن أبا طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم، بعث برسالة إلى النجاشى يوصيه بابنه جعفر وصحبه خيرا.

وفى الحبشة أمام النجاشى، كان هذا الالتحام الفكرى بين المسلمين وبين من قدموا من مكة، وكانت هناك محاولة الوقيعة بين المسلمين وبين من يعيشون فى رحابهم، ومن هنا فإنه رغم ما بذله رسولا قريش بالهدايا والمال وحسن التودد إلى النجاشى، إلا أنهما لم يستطيعا الإيقاع بالمسلمين ولا استثارة حمية النجاشى ضدهم، إذ عرض جعفر بن أبى طالب قضية الإسلام بين يدى النجاشى، وفند ما وجه إلى قومه من تهم، فاقتنع النجاشى بموقف المسلمين، وأبى تسليمهم لقريش، وفى السنة السادسة للهجرة عام ٦٢٧م عقب صلح الحديبية، أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الغمرى بكتاب إلى النجاشى يدعوه فيه للإسلام، ويذكر أنه بعث إليه ابن عمه جعفر بن أبى طالب، ومعه نفر من المسلمين، كذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رسالة إلى النجاشى، بأن يخطب له السيدة أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها، ثم بشأن رد المهاجرين إلى ديارهم، وفى السنة التاسعة للهجرة / ٦٣٠م أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى هدية مكونة من

حلة وأوانٍ من المسك فردت إليه لموت النجاشى، فلما عرف النبى ذلك أرسل عمرو بن أمية بكتاب جديد يدعو فيه النجاشى الجديد إلى الإسلام، وفى ضوء كل هذا نرى المسلمين قد كرموا فى الحبشة، وقد استمرت الرسائل والهدايا متبادلة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين النجاشى، ومهما يكن من أمر إسلام النجاشى أو عدمه أو الأسباب إلتى دعته إلى قبول الإسلام دون اعتناقه، فإن علاقة الحبشة بالعرب فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، اتسمت بالود وتبادل الهدايا بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين النجاشى، فضلاً عن تبادل الرسائل، وليس أدل على استمرار هذه العلاقات الودية مما أجمعت عليه المصادر العربية، من أنه عندما علم الرسول عليه الصلاة والسلام بوفاة النجاشى فى السنة التاسعة للهجرة عام ٦٣٠م، دعا الرسول إلى الصلاة عليه، ولقد عاد مهاجرو الصحابة بأرض الحبشة إلى المدينة المنورة فى السنة السابعة للهجرة/ ٦٢٨م، وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب، بعد أن مكثوا بالحبشة حوالى أربعة عشر عامًا، وهى فترة طويلة كفيلة بإحداث مؤثرات فعالة فى جعفر وأصحابه، ووفد مع مهاجرى الصحابة بعض من زعماء الحبشة، اختلفت المصادر فى عدده، ومن هؤلاء الأحباش من بقى بجوار الرسول ﷺ، وتطوع لخدمته وخدمة المسلمين ومنهم (ذومخمر ابن اخى النجاشى إمبراطور الحبشة) وقد لزم الرسول ملازمة كلية.

وكان للعلاقات الودية بين الرسول عليه السلام والنجاشى والمعاملة الطيبة التى لقيها المسلمون المهاجرون إلى الحبشة، كان لذلك أثر فى توثيق العلاقات بين نصارى الحبشة وبين الإسلام، غير أن هذه الهجرات الإسلامية الأولية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم تترك أثراً فى حياة البلاد، وإن كانت قد تركت أثراً فى نفوس الأحباش، وأطلعتهم على الينبوع الروحى الجديد المتفجر بالقوة والحياة، ووطدت الصلات بين الدولة الإسلامية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وبين الأحباش ولم ينس الرسول صلى الله عليه وسلم مكرمة الأحباش، فكان يكرم الوافدين منهم، وتحمل لهم أطيب الذكريات وإحبها، بل إنه بلغ من إكرام الرسول لهم أن وفد الحبشة حين قدم على الرسول، فإنه صلى الله عليه وسلم قام بنفسه بخدمتهم، وحين قال له أصحابه نحن نكفيك يا رسول الله، قال لهم إنهم كانوا لأصحابى مكرمين فأحب أن أكفائهم، وحين بلغته صلى الله عليه وسلم وفاة النجاشى قال لأصحابه (أخرجوا فصلوا على أخ لكم)وفى ضوء هذه العلاقة الطيبة بين العرب والحبشة نرى القرآن الكريم فى نظر بعض علماء الدين الإسلامى (عطاء بن أبى رياح) يذكر أن ذكر النصارى بالخير فى القرآن الكريم، يراد به النجاشى وأصحابه.

ومن هنا فإنه مما هو جدير بالذكر أن الرسول ﷺ فضلاً عن العرب، قد تأثر بالأحباش

فى لغتهم وحضارتهم، ويذكر الرواة أنه ﷺ نطق ببعض الألفاظ الحبشية، ولا شك أن الإسلام بهذه العلاقات الطيبة أفسح المجال للمؤثرات، تنمو وتزداد فى تلك الصلات المباشرة بين العرب ووفود الحبشة، التى قدمت على النبى وبين العرب وبين الأحباش المقيمين فى شبه الجزيرة العربية، وبين المسلمين وبلاد الحبشة التى هاجروا إليها، وعاشوا فيها فترة من الزمان، ثم تلك الصلات غير المباشرة التى جاءت عن طريق اليمن.

وهكذا ظلت العلاقات الودية بين العرب والحبشة فى العصر الإسلامى، فكثر توافد العرب المسلمين من أجل التجارة، بعد أن دانت شبه جزيرة العرب للإسلام وأصبح المسلمون يتحكمون فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر، فعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر، وأسسوا لهم بالتدريج مراكز استقرار على الساحل الغربى للبحر الأحمر.

ولقد كان أول اتصال واحتكاك بين الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة وبين الحبشة، فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب عام ٢٠هـ / ٦٤٠م على وجه التقريب، إذ تذكر الأخبار أن الخليفة عمر بن الخطاب أرسل إلى الحبشة سرية بقيادة علقمه بن مجزر المدلجى فلم توفق، الأمر الذى جعل الخليفة يأخذ على نفسه عهدا بألا يحمل فى البحر أحد من المسلمين للغزو، وهذا سر عدم موافقة الخليفة عمر بن الخطاب بالأمر للغزو فى البحر، عندما طلب منه معاوية بن أبى سفيان والى الشام غزو قبرص، ولقد كان أول عربى مسلم هاجر إلى الحبشة واستقر بها فى عهد خلافة عمر بن الخطاب هو (ود بن هشام المخزومى).

ولاتتفق أخبار هذه الحملة لاتتفق مع علاقات الود التى سادت بين الأحباش والمسلمين منذ أيام الرسول ﷺ، وكذلك فإن عمر بن الخطاب لم يكن الرجل الذى لم يخرج على أمر قرره الرسول، بل قيل إن الخليفة قضى بألا تعتبر أرض الحبشة أرض جهاد، أو داراً لجهاد المسلمين بها، والتعليل الصحيح لإرسال هذه السرية أنها أرسلت لرد عادية قرصان البحر من الأحباش، كذلك فإنه من المعروف أن النجاشى الذى جاء المسلمون إلى بلده فى عهد الرسول ﷺ، هو صاحب الولاية على إقليم فى شمال الحبشة، والمعروف أنه كان فى ذلك العهد ملوك أو نجاشية لا يعدون، وكان لقب صاحب الولاية الكبرى نجاشى النجاشية؛ أى ملك الملوك، ونذكر ذلك هنا حتى لا يتسرب إلى ذهن القارىء أن النجاشى الذى دخل المسلمون بلده، هو نجاشى النجاشية، أو نجاشى آخر لهذا النجاشى، الذى استقبل

المسلمون الأوائل، وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب هو النجاشى أحمد، وقبره موجود بين قريتى حوزين والبطن، وقد زاره فى مقبرته الإمام أحمد القرين فى نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى، وهاتان القريتان فى المنطقة الشمالية من الحبشة.

وقد ساعد انهيار مملكة أكسيوم مع نمو النشاط العربى على سيطرة العرب المسلمين، على ميناء عدل (عدول)، ولم يعد هناك مخرج للتجارة الحبشية إلا عن طريق العرب المسلمين، وتدريجيا تكونت للعرب المسلمين مراكز استقرار على طول الساحل الشرقى لأفريقيا، ولم يلبث أن امتزج العرب المسلمون بالوطنيين وصاهروهم، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجيًا، حتى أحاطت الرقعة العربية الإسلامية بأفريقيا الشرقية عامة، كما أنها أحاطت بالحبشة فى الناحية الشرقية، التى تقابل اليمن فى الجزيرة العربية. ومن هنا فإنه ظهرت كتابات عربية إسلامية، ولذلك شهد الساحل الشرقى لأفريقيا قيام كثير من المدن والإمارات العربية الإسلامية، التى كانت تمتد فى صورة سلسلة، لا تكاد تنقطع من ساحل البنادر فى الصومال شمالاً إلى ساحل موزمبيق، حتى مصب نهر الزمبيزى جنوبًا، بالإضافة إلى الإمارات العربية الشمالية المحيطة بالحبشة، والتى أطلق المؤرخون عليها من ممالك الطراز الإسلامى؛ لأنها على جانب البحر كالطراز له، كذلك بالإضافة إلى سيطرة المسلمين على الجزر المواجهة لهذا الساحل من سقطره فى الشمال إلى مدغشقر فى الجنوب، وترتب على ذلك كثرة عدد العرب المهاجرين إلى الساحل الأفريقى. ورغم ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعا كبيرا، فإن العرب لم يتأثروا بهذا المناخ؛ لأنهم كانوا يأتون عادة من مناطق أشد حرارة، وهى جنوب الجزيرة العربية وسواحل عمان.

وقد قام الأحباش فى عام ٨٣هـ بالإغارة على ميناء جدة، ومن هنا فإن المسلمين لم يجدوا بدأ من دفع أذاهم، وحماية شواطئ بلاد العرب من أى خطر يأتى من ناحية الأحباش، إلا أن يتخذوا لهم فى البحر الأحمر قاعدة قريبة من الشاطىء الأفريقى الغربى، فنزلوا أرخبيل دهلك على مقربة من ميناء مصوع، ويبدو أن تلك السيادة الإسلامية على هذه الجزر قد استمرت بصفة دائمة، نظرا للموقع الإستراتيجى لهذه الجزر، واستمر الحال على ما هو عليه طوال العصر الأموى، بدليل ما ذكره ابن العماد الأصفهانى، صاحب كتاب الأغانى، من نفى الدولة الأموية للشاعر الأحوص والفقيه عمال بن مالك إلى هذه الجزر، كذلك استمرت هذه السيادة على تلك الجزر طوال العصر العباسى، بدليل أن الطبرى فى كتابه «الأمم والملوك»، يقرر أن هذه الجزر تعرضت لغارات الهنود، فى النصف الأول

والثانى فى القرن الثامن الميلادى، الثانى الهجرى؛ بسبب قيام المأمون الخليفة العباسى بنفى حاكم خراسانى ابن عبد الجبار بهذه الجزر، كما أنه وجدت بتلك الجزر نقوش عربية إسلامية، يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع الميلادى.

ويبدو أن الدولة الإسلامية انسحبت بعد ذلك من تلك الجزر لكنها تركت فى هذه الجزر جالية من المسلمين من أهل البلاد الذين اعتنقوا العقيدة الإسلامية وأصبحوا مسلمون، فكانت بذلك جزر دهلك أول رأس جسر يقيمه الإسلام والمسلمون وصولا إلى الساحل الشرقى لأفريقيا.

بل أنه يذكر أن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ - ٦٨٥ - ٧٠٥م) قد قام بإنشاء حكومات ومدن عربية إسلامية فى شرق أفريقيا، فى منطقة لاموا وغيرها من المدن الساحلية، ويبدو أن هذه المحاولة كانت آخر محاولة من الدولة الإسلامية (الخلافة الأموية) للتدخل الرسمى فى شرق أفريقيا، فقد ترك الإسلام يتسرب إلى البلاد تسربا سلميا بطيئا فى ركاب المهاجرين إلى أفريقيا من التجار المضطهدين، والمغامرين، والفارين بعقيدتهم عبر المسالك البحرية المعهودة.

ويعتقد أن أسرة من قبيلة مخزوم القرشية كانت أول أسرة عربية، أقامت ملكاً إسلامياً عربياً فى منطقة من الحبشة، وهى منطقة الشوا، وكان ذلك حوالى القرن الثالث الهجرى، حيث كان أول مهاجر عربى استقر فى الحبشة، كما ذكر هو (ود بن هشام المخزومى)، ومن هنا ساعد ذلك على هجرة أفراد عديدين من قبيلة بنى مخزوم.

وهذا الانتشار العربى الإسلامى ما هو إلا طور من اطوار الاتساع العربى الإسلامى، وإن كان يختلف بعض الاختلاف عن الفتوح العربية الإسلامية التاريخية المشهورة، إذ أنه لم يكن من عمل دولة أو خلافة إسلامية، بل كان نتيجة نشاط إمارات عربية إسلامية على ساحل حضرموت وعمان واليمن والحجاز، بل كان أحياناً لم يكن له شأن بالإمارات الإسلامية القائمة على الشاطىء العربى بالمرة، بل يرجع إلى جماعات كانت تفد إلى المنطقة بقصد الاستقرار أو الاندماج والتجارة، وهكذا ظهر لسكان شبه الجزيرة العربية دوافع لمحاولة الاستقرار الدائم فى سواحل أفريقيا الشرقية، وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية، وبالتالى زادت الروابط بين العرب وشرق أفريقيا، ولم يقتصر الأمر على عرب شبه الجزيرة، بل

زاد أيضا اتصال شرق أفريقيا بكافة الدول العربية الإسلامية فى أنحاء الوطن العربى، وقد ساعد على ذلك عامل الجوار؛ فالقبائل العربية القريبة من الساحل الشرقى لأفريقيا أو الجيران، كان لابد لها من أن تمد نشاطها وتجارتها وتنتقل حضارتها إلى سواحل أفريقيا الشرقية، كذلك كان من العوامل الرئيسية التى دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم كالعمانيون والحضارمة على وجه الخصوص أنهم سكنوا فى بيئة بحرية مثالية فى جنوب الجزيرة، ظهيرها طارد، فكان طبيعيا أن يفد إلى ساحل شرق أفريقيا فى مجموعات صغيرة انتشرت فى بعض الجزر، ثم فى المراكز الساحلية، واستطاعت هذه المجموعات أن تطبع مناطق واسعة فى شرق أفريقيا بلغتها ودينها، وأن تندمج مع السكان الوطنيين.

وهكذا أصبحت السفن العربية تحمل بين الحين والآخر بعض الذين طاب لهم الاستقرار فى الساحل الشرقى لأفريقيا، للإتجار فيه وليكونوا حلقة اتصال بين إخوانهم فى الجزيرة العربية وبين سكان السواحل الشرقية من أفريقيا والجهات الداخلية فيها.

ولقد كانت الهجرات العربية إلى الساحل الشرقى لأفريقيا فى العصور الوسطى نتيجة لعوامل متعددة، لعل أبرزها- كما سبق القول- المنازعات الدينية والسياسية، التى أخذ يتعرض لها المسلمون؛ خاصة فى عهد الدولتين الأموية والعباسية، ومن الطبيعى أن تنتقل هذه الجماعات المهاجرة من سواحل شبه الجزيرة العربية (الإحساء البحرين وعمان وحضرموت ـ اليمن) أن تنتقل معها صورة من الحضارة العربية الإسلامية إلى أفريقيا، وكان أبرزها إنشاء المنازل العربية ـ المراكز التجارية، وانتشار الدين الإسلامى، والحضارة الإسلامية فى أرتيريا والصومال والحبشة وزنجبار إلى الجنوب من خط الاستواء، وهكذا حدث هذا الاستيطان فى شرق أفريقيا وتلك البقاع الواسعة نتيجة دوافع متعددة، لعل أبرزها كما سبق القول المنازعات الدينية والسياسية التى اخذ يتعرض لها المسلمون خاصة فى عهد الدولتين الأموية والعباسية مما دفع العرب للهجرة إلى موانى شرق أفريقيا؛ حيث كانوا قد ألفوا من قبل التبادل التجارى معها. وتحدثنا بعض الروايات التاريخية أن كثيرا من أهالى عمان هاجروا إلى شرق أفريقيا، هرباً من الحجاج بن يوسف الثقفى، وفى القرن العاشر الميلادى كانت سفن سيراف وعمان فى تجارة منتظمة مع منطقة شرق أفريقيا.

كذلك يلاحظ أن المراكز العربية الإسلامية فى الحبشة- شأنها فى ذلك شأن بقية المراكز العربية على طول الساحل الشرقى لأفريقيا- قد اتسمت بالطابع السلمى التجارى بصفة عامة، ولم تكن فى نشأتها وتوسعها عسكرية أو سياسية فى بادئ الأمر ، ذلك لأن الحبشة كانت موطن هجرة المسلمين الأولى، ومن ثم فإنه لم ينطبق عليها أن تكون دار جهاد ولايصح مقاتلة أهلها، ومن هنا كان التسرب الإسلامى إليها سلميا، فقد كانت الجماعات العربية المهاجرة من سواحل الجزيرة العربية اليمن والحجاز تنقل معها العقيدة الإسلامية، وصورة من الحضارة العربية إلى أفريقيا، ومع ذلك فإن الساحل لم يصطبغ اصطباغاً تاما بالصبغة العربية؛ ويرجع ذلك نتيجة لاختلاف السكان وتباين أجناسهم وتعدد عناصرهم وإن كان قد ترتب على ظهور الإسلام وهجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا انتشار الدين الإسلامى، وقد تأثر قيام المراكز الإسلامية فى منطقة بر سعد الدين (ممالك الطراز الإسلامى) لحياة المجتمع المحلية حيث كان السكان أقرب إلى البداوة الغارقة فى البدائية؛ فهم كانوا يحبون حياة الغزو والنهب والسلب ، ولكن الإسلام عمل على تطوير حياة السكان الاجتماعية وأدخلهم فى إطار الإخوة الإسلامية .

وقد أدى التطور الحضارى لتطور المدن، أو ما يعرف باسم البنادر، ومفردها بندراوراس وأضيف لكل منها شخصية بارزة فى ذلك الإقليم مثل بندر زيادة وبندر قاسم، وهنالك أكثر من موقع، عرف برأس مضافا إليه اسم شخصية دينية أو تجارية، واقتطعت كذلك بعض البنادر بأسمائها القديمة مثل بربرة ومرخة (مركة)، وبرادوة ومقديشيو، وكانت أولى المحطات التجارية، التى استعادت نشاطها فى العهد الإسلامى الذيلع وبربرة، وهنا لك أيضا عدد من الموانىء قد أصابه الخراب، ومنها ميناء ميدى، وهى الواقعة فى مركز اريجانو، وكان هذا البندر يمثل مكاناً بارزاً، كما توجد به مقامات أخرى كثيرة فى أماكن متعددة، وفى بعض الحالات يقام بجانبها مساجد، ويقام مولد، وكان لهذا الساحل نشاطه التجارى وصلاته مع الدول المطلة على الساحل العربى، وكذلك الدول المطلة على المحيط الهندى، كما وصلت إليه السفن التجارية من حوض البحر الأحمر من مصر، والقوافل التجارية من حوض وادى النيل الأوسط عبر طريق جنوب السودان، وكانت هنا لك علاقات تجارية وثيقة بين هذه الأقطار، وقد لعبت ميناء عدن دورها فى العصر الإسلامى؛ حيث اتخذ التجار منها مركزاً تجاريًا كبيراً للتجارة بين مصر والهند وشرق أفريقيا وشمال أفريقيا، كما أن العرب زادت هجرتهم إلى ساحل الزنج أو بر الزنوج فى العصر الإسلامى ، كما زاد تعميرهم للموانىء، التى أقاموا فيها مراكزهم التجارية، ويعتقد أن ميناء قنبلو بفتح القاف والباء وسكون النون،

كانت من أقدم الموانئ التى أنشأها العرب على الساحل ، وقد رآها المسعودى، واختلفت الروايات حول موقع هذا الميناء؛ فيقول البعض إنها كانت على جزيرة زنجبار، ويقول آخرون إنها كانت على جزيرة بمبا ، غير أن المسعودى يحدد موقعها على أنها قريبة من سوقاله، وجاءت هذه الميناء فى خريطة ابن ماجد أنها تقع جنوب ممبسا .

وتشير الروايات إلى أنه كانت قد قامت فى جزيرة قنبلو هذه أسرة حاكمة عربية إسلامية، وأنه كانت بها جماعة من قبيلة الأزد، التى كانت تعمل فى التجارة، بالإضافة إلى هؤلاء، كانت هناك جماعات من الأفريقين الزنوج، الذين اعتنقوا الإسلام، ومنهم فئة قليلة كانت لاتزال على الوثنية .

ولقد أدت الأحداث التى جرت على الساحة العربية الإسلامية إلى ترك الأثر البالغ فى هجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا ، حيث أدت هذه الأحداث إلى زيادة موجات الهجرة العربية الإسلامية، حتى أصبح ساحل شرق أفريقيا منطقة مألوفة، بل معروفة تمام المعرفة بالنسبة للمهاجرين المسلمين، الذين طردوا أو اجبروا على الهجرة من مواطنهم؛ نتيجة الأزمات الدينية أو السياسية التى تعرضوا لها .

ولقد كان لقيام هذه المراكز العربية الإسلامية أثر كبير فى توطيد العلاقات العربية الأفريقية، وفى الشمال مع الحبشة، وفى الوسط مع ساحل البنادر وساحل الزنج ، إذ كانت هذه المراكز هى حلقة الوصل بين الأحباش فى الداخل وبين العرب ، فقد توطت علاقاتها بشبه الجزيرة العربية، عن طريق التجارة والحج، وانتقال طلاب العلم للدراسة فى المدينة المنورة ومكة المكرمة وبغداد وصنعاء ومدن عمان وساحل الجنوب العربى وبغداد والقاهرة ودمشق، كذلك فإنه بالإضافة إلى هذه المراكز العربية التجارية على أطراف الحبشة، استولى العرب المسلمون على مجموعة جزر دهلك، تجاه ميناء مصوع، كما سبق القول .

وبمرور الزمن، زاد عدد الوافدين للاستقرار وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه وتشعبت المصالح، وأصبحت للعرب إمارات فى هذه السوحل، لها اتصال وثيق بالجماعات العربية فى الجزيرة العربية نفسها، وصادفوا جماعات من العرب، سبقتهم إلى هناك، كما لقوا شعباً سواحليا (سواحيليا)، أسهمت العناصر الوافدة على الساحل فى تكوين سماته، وهناك إجماع بين الباحثين على أن تلك الفئة من المسلمين أقامت منازلها الجديدة، دون كثير مشقة أو عناء؛ إذ حلوا على الناس، وتزوجوا منهم، وامتزجوا بهم، كما فعل غيرهم

من قبل وأخذت شعوب الساحل عنهم الدين الإسلامى الجديد والثقافة العربية، التى قامت عليها كما أخذت عنهم الكثير من وسائل معيشتهم ونماذج حياتهم .

وعلى كل حال.. فقد أحدث الإسلام أثره فى ساحل شرق أفريقيا، وأثرت التجارة العربية وما تلاهما من استيطان عربى إسلامى على الساحل تأثيراً كبيراً فى تلك المنطقة، ولعبت الحروب الأسرية والدينية فى الدولة الإسلامية دوراً كبيراً فى الإضافة لهذا الأثر ، ذلك لأن الأوضاع السياسية والاقتصادية فى الدولة العربية الإسلامية، دفعت الكثيرين إلى الهجرة، واتجهت بعض هذه الهجرات إلى سواحل أفريقيا الشرقية؛ وخاصة الحبشة بمفهومها الجغرافى فى العصور الوسطى ، وكانت هذه الهجرات العربية تحدث بصفة مستمرة وفى أعداد يسيرة ، ولما كانت هذه الهجرات ليس لها طابع الغزو، ولكنه توغل سلمى، فإن السلطات الحاكمة فى الحبشة لم تهتم بهم ، ولأنها بلغت من الضعف مبلغاً هائلاً حتى أصبحت سلطة الإمبراطور على الأجزاء الساحلية تكاد تكون شبه اسمية .

ثم استطاعت بلاد الحبشة أن تتخلص من عزلتها، ومن متاعبها الداخلية التى شغلت بها، منذ النصف الأخير من القرن السابع الميلادى ، فقد استأنفت نشاطها المألوف وعادت إلى عالم التجارة، توطد صلتها بالأسواق التجارية القديمة فى بلاد العرب ومصر والسودان الأوسط.

وهكذا تحولت المراكز التجارية إلى امارات عربية إسلامية، يسكنها المهاجرون العرب، على أنه من الملاحظ أن الثقافة واللغة التى انتشرت على يد هؤلاء، لم تتعد الساحل والجزر القريبة منه؛ إذ كان للتجار العرب الوافدين من الخليج وسواحل الجزيرة العربية، فضل كبير فى نشر الإسلام فى جزر القمر، وجزر المحيط الهندى على الساحل الأفريقى، كمدغشقر، والجزر المجاورة لها، والتى عرفت فيما بعد باسم ريونيون وموريس وبشنل، بينما بقى الداخل فى أفريقيا صرفاً، كما كان قبل قدوم تلك الهجرات .

ولقد كانت هذه المدن العربية القديمة تنشأ على جزر قريبة من البر، يمكن الدفاع عنها، إذا أراد السكان الأصليون المنتشرون فى الساحل أن يتعرضوا لها بسوء، ولا نعرف عن هذه المدن القديمة شيئاً بذكر ، وكل ما نعرفه أن ظهور الإسلام وانتشاره فى بلاد العرب كلها وامتداده إلى الشرق الأدنى والأوسط (بالمصطلح الحديث)، قد امتد أثره إلى هذه البقعة النائية من شرق أفريقيا؛ فخرجت من ظلمة المجهول إلى وضح التاريخ؛ حين أسلم المقيمون فيها والمختلفون إليها، وهكذا كان اسلام المغامرين والمضطهدين والفارين بعقيدتهم (المذهب الشيعى، آل البيت، الخوارج، المعتزلة) والتجار العرب والفرس.. كان كل ذلك نذيراً ببروز هذه المدن، وبظهورها فى سماء الحياة الإسلامية العربية .

وهكذا بدأت هذه الآفاق النائية من شرق أفريقيا تتأثر بأحداث الشرق، ولم يعد يقصد إليها التجار مقيمين أو مسافرين ، إنما بدأت طوائف أخري من المهاجرين، تشد الرحال إلى الجنوب فراراً من ضغط سياسى أو مذهب دينى، أو تعرضاً لضائقة اقتصادية، أو التماساً لمهجر جديد يطيب فيه المقام وتستقيم الحياة ، هؤلاء المسلمين الراحلين إلى الجنوب هم الذين تسببوا فى بروز هذه المدن وظهورها فى ميدان الحياة الإسلامية ، ولقد كان هؤلاء الراحلين المهاجرين العرب من مختلف الطبقات، فمنهم زراع من اليمين، ومنهم تجار من حضرموت وعمان والحجاز ، بل إنهم قبل كل ذلك كانوا أصحاب دعوة إسلامية، وحملة دين وقيم إسلامية خالدة، سعوا إلى نشرها فى هذه الآفاق ، كما أنهم تفانوا فى درجة غناهم ولقد كانت هذه من الأسباب التى دفعت كلاً منهم إلى الهجرة .

وهكذا يكون من المفيد هنا الإشارة إلى المنازعات الدينية والسياسية أنها كانت من العوامل المهمة، التى دفعت العرب إلى المجيء إلى شرق أفريقيا، بهدف الاستيطان أو الاستقرار الدائم ، وهذا ما دفع بالعرب إلى الهجرة إلى ساحل شرق أفريقيا؛ حيث كانوا قد ألفوا من قبل التبادل التجارى مع مدنه وموانيه، ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن الاستقرار العربى فى شرق أفريقيا حدث بهدوء ودون اللجوء إلى القوة أو العنف؛ فالتاريخ الأفريقى فى تلك المنطقة لا يذكر لنا حروباً أو معارك وقعت بين المهاجرين العرب والسكان الأصليين .

ومع ان الاضطرابات قد وقعت بين المسلمين بنسب متفاوتة، فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، إلا أن هذه البقعة التى كانت تنحصر فى البحر الأحمر الجنوبى وما على ساحليه الشرقى والغربى وساحل المحيط الهندى الشرقى لأفريقيا، كانت تتمتع بهدوء نسبى، وكانت تمثل الخط التجارى المقابل ، وهكذا كان هؤلاء الخليط من اليمن وسكان جنوب الجزيرة والأحباش كانوا يحملون التجارة من موانىء البحر الأحمر والمحيط الهندى من جهة، وموانى مصر الشرقية من جهة أخرى .

وكان العرب يمثلون الطبقة الأرستقراطية فى هذه المدن، وإلى جانب هؤلاء كان الهنود من أصحاب الحوانيت والصيارفة والسماسرة، يتجهون إلى أن يحلوا محل سادتهم العرب فى ميادين الأعمال، واحتلت طبقة من المولدين، الذين يدينون بالإسلام، ويتكلمون خليطاً من اللغات ، مركزاً متزايد الأهمية، وكان كثير من العبيد يعملون كخدم وحمالين وجنود، وكانت كل مدينة تحيا حياة مستقلة، ولم تكن هناك قط إمبراطورية عربية فى أفريقيا الشرقية، بل كانت هناك زعامات وقتية لإحدى المدن على المدن الأخرى، ولقد سادت جزءاً

من الساحل كل من ممبسا ومقديشيو وبمبا وزنجبار ، واحدة بعد الأخرى، وكانت كلوة أقوى هذه المدن ، فقد أخضعت لنفوذها سفالة، وتجارة الذهب فيها حكمت الشاطىء الجنوبى، وأثرت تأثيرا قويا فى الشمال .

ومن ثم توالى دخول الأفارقة فى دين الله أفواجا، ولقد كان للدعاة والتجار تأثير قوى فى نشر الإسلام، والدعوة له بين هؤلاء القوم والذين انصهروا فيهم وتزوجوا من نسائهم، واختلطت الدماء العربية بالدماء الأفريقية، وكان من أثر هذا الاختلاط أن وضحت غلبة الإسلام وذيوعه وانتشار تعاليمه المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذيوع العلوم الإسلامية المبنية على هذين النبعين الخالدين والأساسين القويمين، وظهر واضحا للعيان أثر المهاجرين فى نشر الإسلام، وتكوين ممالك إسلامية افريقية عربية، كان لها دورها الفعال فى حمل دعوة الإسلام، ونشر رسالته فى هذا الجزء من القارة الأفريقية، وخرج الدعاة الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله من هذه الممالك لنشر الإسلام فى كل مكان فى شرق أفريقيا، وغلب طابع الإسلام، وازداد بعد ذلك تدفق الموجات الإسلامية المهاجرة من الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية (عمان - مسقط - حضرموت - اليمن) .

وهكذا لقد كادت المنطقة الممتدة من أرتيريا شمالا حتى موزمبيق جنوبا- من أثر الدعوة الإسلامية، ودور الدعاة من العلماء والمهاجرين والتجار- أن تكون جزءاً من العالم العربى الخالص ولكن كانت جزءا من العالم الإسلامى تشبه فى تطورها الإسلامى مناطق مسقط وعمان وحضرموت والاحساء وعسير والحجاز وكذلك المناطق التى تشمل الصومال والحبشة، والأجزاء الساحلية المحيطة، بخليج عدن من الناحية الغربية والبحر الأحمر ، هرر - سواكن - زيلع - بربرة - مصوع، والحبشة من الهضبة الداخلية ، والمناطق التى نشأت منها أول مجتمعات إسلامية فى المناطق الساحلية، وكانت تبشر وتدعو وتهدى بالإسلام بين القبائل اليدوية .

ومن هنا نشأت وظهرت للعالم الإسلامى مدن إسلامية، أسست على التقوى والإيمان، وأنشأها رجال خرجوا يدعون لدين الله فى أرض الله، ومن هنا ظهرت دار السلام كلوه ، مدغشقر ، سفالة ، ممبسا ، مقديشيو، زنجبار ، وبهذا يمكن القول بأن المنطقة التى كانت تضم من الشمال ارتيريا والحبشة وبلاد الصومال وكينيا وتنزانيا ، زنجبار (تنجانيقا) وموزمبيق ، تؤلف عالما إسلاميا مستقلا، نجحت الهجرة العربية الإسلامية والدعوة الإسلامية

فى إيجاد هذه الإمارات الإسلامية؛ حيث ارتفع نداء الله اكبر ، لا إله إلا الله محمد رسول الله على الساحل الشرقى الأفريقى، وظهرت للعالم إمارات إسلامية، شاركت أخواتها المسلمات فى كل مكان من الأرض الإسلامية، فى الدعوة لدين الله الخالد، بل إن الدعوة والرغبة العربية الإسلامية لم تلتق بالدعوة بتلك المدن الساحلية ، بل إنها توغلت بفضل أبناء الإسلام المخلصين فى داخل القارة، حتى كادوا أن يصلوا إلى الساحل الغربى للقارة الأفريقية، وذلك عبر الغابات الاستوائية وحوض الكونغو، ومنطقة البحيرات الاستوائية .

ولقد كتب أحد الرحالة الغربيون (ستانلى ، ليفنجثون) يصف الإسلام وقوته فيقول إنه من مدينة دار السلام على الساحل الشرقى لأفريقيا، وهو يأخذطريقه عبورا للداخل فى القارة حتى حوض الكونغو كان يشاهد المساجد فى كل القرى، التى مر بها سواء القرى الصغيرة أو الكبيرة؛ حيث كان المسجد المعلم الظاهر فى القرية ، وكذلك كان المسجد فى الغابات والأحراش أو على أطرافها ، ومن ثم فإن نداء الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، كان يرتفع بالنداء فى كل البقاع التى مر بها .

وهذا القول من أحد رجال الغرب المكتشفين، الذين وضعوا لبنة التبشير المسيحى والاستعمار الأوربى، إن دل على شيء، فإنه يدل على رسوخ الدعوة الإسلامية فى هذه الأماكن، وعزم الرجال الذين خرجوا يجاهدون من أجل رفع اسم الله وقرآن الله بين القبائل الوثنية، ولأجل خلق أمة إسلامية فى تلك البقاع النائية بين القبائل الوثنية، ولأجل إيجاد أمة إسلامية، يسعى نورها ليضيئ الكون بأنوار الرسالة الإسلامية، التى وطدت العزم على بلوغ أهدافها؛ لإيصال ذلك الدين القيم إلى كل الشعوب، حتى وصل إلى شعوب منطقة البحيرات الاستوائية وخط الإستواء وأوغندا والكونغو، حيث ظهرت تلك الأماكن إسلامية فى كل مظاهرها راقية متطورة .

وإن بعض كتاب الغرب المحدثين (شارل اندريه جوليان) يذكر أن العرب لم يدخلوا فى علاقات مع قبائل البانتو والبوشمن فى الداخل، إلا بقصد تبادل المنسوجات والمواد التجارية كالأدوات المعدنية والخرز والعاج والذهب، الذى كان يستخرج فيما عرف بعد ذلك بإقليم رودسيا والعنبر الرمادى ، بل افترى كل الافتراء البعض حين قال بالحرف الواحد إن العرب كانوا يتاجرون فى العبيد، وكانوا يبيعونهم فى أسواق آسيا حتى الصين، وهم أول من أدخل الرق فى أفريقيا من قبل التاريخ المسيحى، ولم يتخلوا عن هذه التجارة إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وإن ألفى سنة من الإتجار الدائم فى اللحم البشرى، إتجار تغذية الحروب

الداخلية، تلك الحروب التى كان إغراء الكسب يشعل نارها قد أسهمت فى إفقار القارة من سكانها والإبقاء على همجيتها .

والرد على هذا الأوروبى الجاهل المتحامل على الإسلام وقوته، ورسالته الخالدة بمنتهى الصراحة فى مظاهر ومعالم الرقى الحضارى، والتمدين فى شرق أفريقيا، وفى التطور الحضارى والرقى الاجتماعى والتغير فى جميع المظاهر، كما شهد بذلك الرحالة البرتغاليون، الذين وصلوا إلى شاطىء شرق أفريقيا ، ثم من الذى ذهب بالرقيق إلى أوربا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية، ومن الذى يمارس سياسة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا، هل هم العرب المسلمون أو الأوروبيون. إن القارة الأفريقية الذى أفقرها سكانها هم الأوربيون، الذين نزحوا منها ما لا يقل عن ١٠٠ مليون بشر ، نذكر منها على سبيل المثال أن الكونغو كان عددها سكان ٦٠ مليون نسمة، قبل الاستعمار الأوروبى أصبح عام ١٩٥٤ ، ١٤مليون نسمة ، فأين ذهب الستة والإربعين مليون ، ياشارل أندريه جوليان ، وهكذا قلب الحقائق. ويضيف المؤلف أنه لكى يسهل العرب أمور تجارتهم ، أنشأوا طرقًا لقوافلهم بعيدة عن الشاطىء ، وبنوا مستودعات جمركية فى داخل البلاد، ولقد كانت تضطرهم الظروف فى بعض الأحيان إلى فتح طرق داخلية للتجارة، ولكنهم لم يسعوا ألبتة إلى إخضاع القبائل بالقوة، أو ضم أراضيهم إلى ممتلكاتهم، وإن كانت علاقاتهم قد انحصرت فى حدود ضيقة مع سكان الشاطىء، الذين اختاروا حضارة آسيوية أفريقية تقريباً، فإن اتصالاتهم بالقبائل التى تقطن بالداخل كانت منقطعة ومقصورة فقط على التجارة ، ولهذا فإن ما فعله عرب الشاطىء الشرقى لم يذهب صداه إلى مدى بعيد، ولم يكن عميق الأثر. ومهما يكن من شئ، فقد يكون من الجائز أن ينسب إلى هؤلاء العرب إدخال زراعة الأرز وقصب السكر من الهند إلى أفريقيا الاستوائية، ضمن الذى أدخل الإسلام وحضارة الإسلام الخالدة، وظهور المدن الكبرى، والإمارات الإسلامية، واللغة العربية، وأثر ما فى اللغة السواحلية، والمظاهر الاجتماعية والتقاليد والعادات الجديدة والأعراف، وأثرها لكن الكاتب الأوروبى له عذره فعداوته للاسلام والعروبة واضحة وصريحة فى هذه الأقوال التى ذكرناها فقط؛ لكى يدرك القارىء الكريم مدى الافتراء والبهتان العظيم على الإسلام والعروبة والعرب .

ونقول هنا إن الجماعات العربية المهاجرة من سواحل الجزيرة العربية من الأحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن تنقل معها صوراً من الحضارة العربية إلى شرق أفريقيا، وهى إنشاء المدن والمنازل والوكالات التجارية، وكل الأساليب الحضارية المتطورة والراقية،

ومع ذلك فإن الساحل الشرقى فى أفريقيا لم يصطبغ اصطباغًا تاماً بالصبغة العربية ، ويرجع ذلك إلى اختلاف السكان وتباين أجناسهم وتعدد عناصرهم ما بين عرب وفرس وهنود وبانتو وبوشمن وزنوج ، وإن كان قد ترتب على ظهور الإسلام وهجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا انتشار الدين الإسلامى. وما نجدر الإشارة إليه تدفق الهجرات العربية الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، ويعزى ذلك إلى سقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول (٦٥٦هـ ١٢٥٨م) وغزو تيمور لنك لفارس؛ إذ أدت هذه الأحداث إلى دفع موجات الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق افريقيا ، ومن هنا فإنه يمكن القول أن التجارة العربية أحدثت أثرها الكبير فى ساحل شرق أفريقيا، وكان مؤثرا، بل فعالا ، إذ إنه كان من أسباب استقرار العرب السلمى دور كبير فى قيام العلاقات بينهم وبين السكان الوطنيين، على أساس من الود والصداقة.

ووجد أهل البلاد فى هؤلاء القادمين نوعاً من الحماية فازداد تقربهم إليهم واندماجهم فيهم ، وارتبطوا معهم برباط المصاهرة، فظهر جيل جديد كان عماد المراكز الإسلامية فى شرق أفريقيا والحبشة، والتى ارتبطت بالعرب ارتباطاً وثيقاً، تمثل فى الدين واللغة، ثم فى رابطة الدم أيضا؛ ذلك لأننا نجد أن المهاجرين العرب ، قد اتجه الزارع (الفلاح) منهم إلى حيث الأراضى الخصبة وكثرة المطر، فقصدوا شمال الحبشة ووسطها، واتجه الرعاة إلى سفوح الهضبة الشمالية، وإلى حد ما فى الصحراء، وإلى سفوح الهضبة الشرقية من جهة الجنوب والى صحراء الإجاودين ، أما التجار فمكثوا فى المناطق الساحلية، ذات الاتصال السهل بالداخل؛ حيث الأسواق والسلع التجارية التى تحملها سفنهم .

وعلى الرغم من أن الهجرات جاءت من أمكنة متعددة من الجزيرة العربية، وعلى الرغم من أن المهاجرين جميعاً قدموا خدمات جليلة للإسلام وعملوا على نشره فى تلك البقاع ، إلا أن أبناء بلاد الجنوب واليمن الخليج وبصفة خاصة حضرموت قد قاموا- فى هذا المجال- بدور كبير، فقد تخطى هؤلاء القوم الصعاب، ولم ينسوا قط الدعوة للإسلام فى حلهم وترحالهم، فحملوا الأفارقة إلى الإسلام، وحملهم الإسلام إلى أسمى منزلة، بل إنه هناك عدة ملايين من البشر فى مختلف بقاع الشاطىء الأفريقى، يرتبط إسلامهم بهجرات الحضارمة وغيرهم من أبناء الجزيرة ، ومن المعروف أن الهجرات العربية الأفريقية وشرقها لم يتوقف نشاطها عند الساحل (كما فسر ذلك المؤرخين الغربيين)، بل تعمقت رسالة الإسلام حتى وصلت إلى قلب القارة، ويلاحظ هنا أن المهاجرين العرب لشرق أفريقيا قلما

صحبوا زوجاتهم فى هجراتهم؛ فالمرأة العربية كانت التقاليد تحميها من المغامرات والأخطار ، ثم إن العربى كان قريب الشبه فى زيه وطعامه من أصحاب البلاد الأصليين وقد نتج عن ذلك حدوث تزاوج وارتباط واسع بين الطرفين، وهذا الإرتباط بين الجانبين قصر المسافة ويسر انتشار الإسلام ونجاحه بين الجماعات الوثنية، والتى ما كان فى شرق أفريقيا؛ فتحققت بذلك نظرية علماء مقارنة الأديان، التى تقرر أن الدين الأعلى يسكن فى قلوب من لا دين لهم، أو من يعتمدون فى تدينهم على خرافات وأوهام، وذلك كسيل ينحدر من أعلى إلى اسفل .

ولقد احس الوطنيون الأفارقة (البانتو ، البوشمن ، الزنوج) أن العرب جاءوا من أرض النبى صلى الله عليه وسلم، وإن لهم- أو بكثيرين منهم، خاصة المهاجرين- صلة نسب برسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، ومن هنا تقربوا منهم، وتعاونوا معهم فى نشر الإسلام وفى اتباع تعاليمه، وأسلموهم القيادة فى كثير من الأحيان، ومن هنا يرتفع الانتساب إلى الأسر، التى حكمت فى الشرق الإسلامى كالأمويين والعلويين والهاشميين والعباسيين، أو إلى بلال بن رباح الحبشى، أو إلى أسرة سيف بن ذى يزن، مع ربط صلته بالرسول صلى الله عليه وسلم .

ولقد لقى المهاجرون من التجار والدعاة والعلماء، الذين هاجروا إلى شرق أفريقيا فى ساحل جنوب وغرب وشرق الجزيرة العربية وغيرها، ترحابا وبسطة وحسن معاشرة فى المناطق التى رحلوا إليها، فشدهم ذلك بالإغراء لكى يستقروا فى تلك البقاع، ينشرون فيها دين الله ويخدمون العلم والدين والتجارة والدعوة للاسلام، فاتخذوا من هذه المناطق مأوى ومستقرا جديدا، حيث طاب لهم المقام فأستوطنوها، وقد ساعد ذلك على انتشار الإسلام بسرعة فائقة بين هؤلاء الأقوام .

وفى ذلك يقول أرنولد توماس فى كتابه «الدعوة للإسلام»- الذى ترجمه دكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون- إنه يعتقد أن أول هجرة جماعية كبيرة استقرت فى شرق أفريقيا، هم جماعة من الشيعة، حيث هاجروا إلى تلك الأماكن، وكانوا جماعة من شيعة الشهيد زيد ابن على بن زين العابدين بن الحسين بن على بن ابى طالب ، وقد فروا إلى تلك البقاع عقب هزيمة الثورة التى قام بها زيد، وأعدم من اجلها فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى، وكان ذلك عام (١٢٢هـ - ٧٤٠ م) .

بل إن هناك بعض الآراء تذكر فى المصادر التاريخية أن هناك هجرات عربية سابقة على تلك الهجرة وأن أولى هذه الهجرات العربية الجماعية إلى ساحل شرق أفريقيا، كانت فى

عهد والد هشام (عبد الملك بن مروان) (٦٥ - ٨٦هـ ، ٦٨٥ - ٧٠٥م)، وذلك على أثر اتباع سياسة البطش والتنكيل بالقوى الإسلامية المناوئة له؛ حيث كانوا يقومون بالحركات المناوئة لآل أمية، والأسر الحاكمة الأموية، فخرجت هجرات عربية كبيرة إلى ساحل شرق أفريقيا، وانضمت إلى من سبقوهم إليها؛ ليدعموا تأسيس المدن العربية، التى كانت هناك، والتى أصبحت نواتها لامو والمناطق التى حولها. وتضيف هذه الروايات أيضاً أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، عندما علم بشأن تلك الهجرة العربية إلى شرق أفريقيا، فإنه بادر فوراً بإرسال أخيه حمزة بن مروان ومعه نفر من رجال الدعوة الاسلامية إلى شرق أفريقيا لنشر الدعوة الإسلامية، ومد نفوذ الخلافة الأموية إلى تلك المنطقة ، بل إن هناك روايات أخرى تؤيد إرسال عبد الملك بن مروان لوفد إلى تلك البقاع، ولكنه يذكر أنه أرسل ابنه جعفر بن عبد الملك ومعه نفر من اتباعه إلى شرق أفريقيا؛ حيث هاجروا إليها واستقروا وحكموا فى منطقة جنوب مدينة مقديشيو فى كيو أبو فى أرخبيل لامو، ومهما يكن من أمر تلك البعثة الأموية فإن تلك الروايات تذكر أن عرب بنى أمية، قد قاموا بتأسيس إمارة عربية إسلامية أموية فى لامو؛ حيث يمكن أن نقول أنها أقدم إمارة عربية إسلامية فى شرق أفريقيا .

بل إننا نجد المؤرخ هنشتر فى كتابه الإسلام فى شرق أفريقيا ، يذكر عن تلك الهجرة الأموية المشار إليها أنها قد حدثت فى عام ٧٥هـ/ ٦٩٥م، فى عهد عبد الملك بن مروان، وبعد توليه الحكم بعشر سنوات على وجه التحديد ، حيث عثر ذلك المؤرخ على مخطوطة بعنوان (أخبار مدينة لامو) لمؤلفها (شيبو فرج بن حمد الباقرى)، يعرض فيه لتاريخ هذا البلد الإسلامى الأفريقى والهجرات العربية الإسلامية التى تدفقت إليه ، فيذكر أن هذه الهجرة الأولى كانت تمثل فريقًا من أهل الشام، لم يرضوا عن سياسة البطش التى استخدمها الحجاج بن يوسف الثقفى، فرحلوا جنوبًا إلى لامو، ويبدو أن اعداد هؤلاء المهاجرين كانت عظيمة؛ لأنهم استطاعوا إخضاع السكان الأصليين واقتحام ميناء (ويونى) الحصين، وكانت به جالية من المسلمين تزيد عن عشرة آلاف من المسلمين ، مما يؤكد قدم انتشار الإسلام فى تلك البقاع، وإلا من أين جاء هؤلاء العشرة ألاف من المسلمين، الذين كانوا من أهل البلاد الأصليين، وخضعوا جميعًا لراية الإسلام؛ مما يعطى الدليل القوى على انتشار الإسلام منذ فترة طويلة، وأن هناك أعداداً كبيرة من العرب المهاجرين، قدمت إلى تلك البقاع، ونشرت الإسلام بين هؤلاء الأقوام وإلا كيف وصل عدد السكان الأصليين إلى عشرة آلاف مسلم .

ويعلق أرنولد توماس قائلاً على تلك الرواية إن هذه الجماعة عاشت فى مبدأ الأمر فى خوف بين السكان الأصليين الوثنيين، ولكنها نجحت بالتدريج فى نشر الإسلام، ثم بسطت نفوذها على ذلك الحصن ومنه إلى طول الساحل .

كذلك كانت أهم هذه الجماعات العربية المهاجرة، التى خرجت من عمان، خلال الفترة ٧٥ - ٨٥هـ (٦٩٤ - ٧٠٤م)؛ حيث كانت هذه المرة الهجرة العربية من ساحل عمان، وممن هاجر منهم، بل بقيادة تلك الجماعة سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى، وهم من قبيلة أزد العربية العمانية وهما من شيوخ العرب، الذين حكموا عمان أيام الدولة الأموية، والذين كانوا قد أعلنوا الثورة فى وجه الخليفة عبد الملك بن مروان، ولكن تغلبت عليهم قوات الحجاج بن يوسف الثقفى عام ٧٥هـ / ٦٩٤م، بعد أن ظلوا يقاتلون قوات الأمويين؛ حتى غلبوا على أمرهم واضطروا للفرار إلى بلاد الزنج؛ حيث هرب سليمان واخيه سعيد مع انصارهما إلى الساحل الشرقى لأفريقيا ، فكان الأميران رسولى سلام ودعوة إلى الإسلام .

وإذا كان كوبلاند فى كتابة «شرق أفريقيا» لا يعرف أين انتهى المطاف بهؤلاء القوم ، إلا أن شيبو فرج بن حمد الباقرى، صاحب تاريخ لامو، يلقى المزيد من الضوء على هؤلاء العمانيين ، حيث قد يكون من المحتمل أنهم نزلوا فى مكان بات (بيت)، فى جزيرة مافيا، فى أرخبيل لامو، أو فى ارخبيل حدابو، التى أسسوها شمالى ممبسا؛ حيث كانت هذه الاستقراطية العربية الوافدة سبباً فى ظهور إمارة إسلامية فى هذا العصر، وفى مدينة لامو شمال ممبسا إذ استطاع حفيد هؤلاء، ويسمى الحاج سعيد، فى مستهل القرن الثامن الهجرى أن يؤلف حكومة ديمقراطية إسلامية، تهتدى بتعاليم المذهب الخارجى، الذى كان قد تفشى فى ذلك الوقت، فى قبيلة الأزد بعمان، ويذكر صاحب تاريخ لامو كيف أن المهاجرين من الشام والهند والعرب بمدينة حديو وأهل مدينة ويوتى، قد بايعوا سعيدا هذا بالزعامة، ورسم لهم أن تقسم المدينة إلى أحياء صغرى، لكل منها شيخها، ويؤلف شيوخ الأحياء مجلسا استشاريا يشاركه المسئولية، وأصبح المواطنون جميعهم أحراراً لكل منهم الحق فى أن يلجأ إلى هذا المجلس، طالباً الانصاف إذا احس بأدنى ضرر أو سوء يقع عليه، فكانت إمارة لامو هذه أقدم الإمارات الإسلامية فى ساحل شرق أفريقيا .

وتبع هذه الهجرة العربية هجرات أخرى، استقرت فى أماكن متفرقة على الساحل الشرقى لأفريقيا، وقدمت هذه الهجرة إلى الساحل هذه المرة من اليمن؛ حيث كانت هجرة زيدية، وذلك على أثر نشوب نزاع بين الشيعة فى اليمن وانقسامهم طائفتين متخاصمتين ،

حيث أدى انقسام الشيعة هذه المرة إلى اضطرار كثيرين من الزيدية إلى الاعتصام ببر الزنج ، حيث استقروا وكونوا لهم عدة منازل، ثم تبعتهم جماعات أخرى من الزيدية فتضاعفت أعدادهم بسرعة، وبخاصة بعد خروج أعداد من الزيدية من اليمن إلى شرق أفريقيا فى الفترة من (١٤٠- ١٤٢هـ / ٧٥٧ - ٧٦٠م)، فانتشروا على ساحل بنادر، وتوغلوا إلى الداخل قليلاً، واتسع ملكهم حتى ضموا منطقة مقديشيو ، تلك المدينة التى أسسها العرب فيما بعد، إن كان قد استقر بهم المقام أولا فى مدينة شنجايا Shangaya، التى يذكر أنها فى موقع مدينة (بورت دن فورد) الحالية، ويبدو أن هذه المدينة لم تبرز فى هذا المجتمع ولم تظفر بالنجاح والشهرة الذى ظفرت به الإمارات السابقة ، وكانت كل هجرة من هذه الهجرات مقدمة لظهور مدينة جديدة، ونشأة إمارة إسلامية جديدة ، ولما كان الشيعة الزيدية الذين نزلوا فى هذا المكان قد اضطرتهم ظروف سياسية إلى الهجرة إلى داخل أفريقيا واندمجوا مع السكان الأصليين، تاركين الساحل للوافدين الجدد، الذين كانوا أكثر عدداً وأوفر قوة ، فإنه يقال إنهم هم الذين أسسوا مقديشيو عاصمة الصومال الحالية .

وإن كانت هناك آراء تذكر أن مقديشيو أسست فى منتصف القرن العاشر الميلادى، وأن الذين أسسوها كانوا قومًا فى الفرس بدليل أن التسمية فارسية، ويمكن التوفيق بين الرأيين باعتبار العرب أسسوا المدينة فى القرن التاسع ربما باسم آخر ، ثم زاد الفرس فى المدينة، وأطلقوا عليها مقديشيو؛ إذ إنهم أطلقوا هذا الاسم على الحى الذى نزلوا به من المدينة أو على المنطقة التى بنوها ، ثم غلب الاسم على المدينة كلها ، كما غلب اسم القاهرة على كل الأحياء، التى بنيت قبل قدوم الفاطميين إلى مصر .

ويبدو أن أخبار نجاح الهجرة العمانية بزعامة الأخوين سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى، كانت دافعا للزيدية بالهجرة إلى السواحل الشرقية لأفريقيا؛ حيث استقروا وكونوا لهم عدة منازل ، وحكم الزيدية فى ساحل البنادر حوالى مائتى سنة، قاموا خلالها باستصلاح الأراضى القاحلة، بالاستفادة من مياه نهر جوبا وشبيلى، واستطاعوا بمساعدة الوطنيين زراعة بعض النباتات التى درت عليهم أموالا طائلة .

واهتم الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠ -١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) بالساحل الشرقى لأفريقيا ، وذلك لما علمه من شهرة الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان هناك؛ لذا شجع سكان بغداد والعراقيين على الهجرة إلى الساحل، وبالفعل أرسل بعض رجاله

إلى الساحل؛ من أجل تعمير ذلك الساحل، ونشر الدعوة الإسلامية بين الأقوام الأفارقة وربما وصلت سفنهم إلى زنجبار وبمبا .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى، خرج من اقليم الأحساء على الخليج العربى- خلال الصراع بين الخلافة العباسية والقرامطة- سبعة أخوة من قبيلة الحارث العربية على رأس جماعة من أنصارهم، وذلك إثر الصراع الدموى، الذى دار على أرض ذلك الاقليم. ومما يذكر فى هذا الصدد أنهم خرجوا فى ثلاث سفن، وهبطوا على الزيدية ، ولما كان الزيدية من الشيعة والوافدين الجدد من أهل السنة؛ حيث لم يكونوا من القرامطة، فإن الزيدية ارتدوا إلى داخل أفريقيا .

وتحالفوا مع أهل البلاد الأصليين من الصوماليين، وظهرت مقديشيو كمركز تجارى يشتغل بتجارة شرق أفريقيا ومنتجاتها المختلفة، ثم انشأوا مدينة براوة ويسميها الإدريسى بروات، كما أشار إلى مركة التى تقع عند نهر ديبى، بل إنه ظهرت عدة مدن صغرى أخرى بجانب مقديشيو ، وكان لهجرة الأخوة السبعة من آل الحارث العربية إلى ساحل أفريقيا الشرقى نتائج بعيدة الأثر، فى تاريخ المنطقة، على مدى قرنين من الزمان؛ فإليهم يرجع الفضل كل الفضل فى ظهور مشيخة مقديشيو كإمارة إسلامية، وهى التى تزعمت الساحل الشرقى لأفريقيا لفترة طويلة .

ولقد كان لاتساع نفوذ مقديشيو أن حدث ترابط بين عناصر السكان من العرب والآفارقة ، فعقدت اتفاقية فى القرن العاشر الميلادى بين العرب والفرس من جهة، والقبائل الأفريقية من جهة أخرى، قضت على تكوين اتحاد على صورة مجلس من الأشراف والأعيان فى القبائل؛ للنظر فى أمور البلاد، ومن ذلك حفظ الأمن وتطبيق العدالة، وقد تم ذلك الاتحاد بعد أن تم اختيار مقديشيو عاصمة لساحل البنادر بأجمعه، والذى يشمل موانى مركة وبراوة والأراضى المحيطة، والتى كان يطلق عليها جميعاً مقاديش، وعرف سكان هذه الجهات باسم سكان بنادر، كما عرفت بضائعهم باسم بضائع بنادر .

وعلى هذا.. فإن هذه المدن التى اطلق عليها بنادر ومفردها بندر، كانت لها صلاتها التجارية مع الدول المطلة على المحيط الهندى؛ حيث اتخذ التجار منها مراكز تجارية، ويهمنا أن نتعرف أثر هذه المنطقة ، منطقة الصومال الكبير فى تعرف الحياة الاجتماعية والاقتصادية؛ فقد كانت الصلات عن طريق القوافل قائمة، وأن القوافل لم تكن كما هو معروف لدينا،

مزودة بالدواب للنقل؛ لعدم صلاحية بعض المناطق لسير الجمال أو الدواب ، بل كانت تستخدم الحمالين من السكان المحليين لنقل البضائع أو غيرها ، وقدموا بل أقاموا حكومة تولى أمرها أمراء من العرب ، ولا يعلم عن تطور التنظيمات العربية، التى جاء بها هؤلاء القوم، سوى انهم كانوا يؤلفون مجلسا استشاريا لممارسة الحكم .

ولقد ظهر فى ذلك الأقليم شعب، عرف باسم الاموزيدج، ويبدو أن هذا الاسم تحريف سواحيلى لكلمة الزيدية، وربما يكون ذلك تميزاً لهم عن الزنوج الخلص ، حيث كان كما سبق القول أن قد ترتب على وصول هجرة هؤلاء الإخوة السبعة من آل الحارث، من إقليم الأحساء إلى ساحل البنادر، أن نشب صراع بينهم وبين الزيدية الشيعة، الذين كانوا قد سبقوهم بالهجرة إلى هذه الأماكن، وذلك نظراً للاختلاف فى المذهب الدينى، إذ كان الأخوة السبعة الاحسائيين وأنصارهم من أهل السنة، بل قبل إنهم كانوا سنّيين على طريقة المذهب الشافعى ، حينما كانوا الزيديين اليمن من انصار شيعة الإمام زيد، ومن هنا انتهى الصراع بين الفريقين بانتصار انصار المذهب السنى، وانسحاب الزيدية إلى الداخل ، وعلى مر السنين تزواج الزيدية مع القبائل الأفريقية الخالصة، وامتزجت دماؤهم، ونتج ما يعرف بهذا الشعب الاموزيدج .

وتتابعت الهجرات العربية إلى الساحل الشرقى لأفريقيا، ومنها إلى الجزر المجاورة للساحل ويذكر المؤرخون هجرات من اليمن والحجاز والجنوب العربى، وحضرموت والحجاز، انسابت إلى هذه البقاع، واختلطت بالسكان، وانتشر الإسلام فى ذلك الجو الجديد، وبرزت سلطنات إسلامية عديدة حاكمة أو قبائل ذات نفوذ كبير .

وبمناسبة الحديث عن الزيدية فى شرق أفريقيا واندماجهم فى السكان الأصليين فى تلك البقاع، فإن ذلك أدى إلى ظهور الجيل من المولدين، ومن ثم يجب الذكر أن المذاهب الإسلامية المتعددة التى كانت تموج بها البلاد العربية كالعراق وفارس أو الجزيرة العربية أو الشام، لم تجد فى شرق أفريقيا فرصة الازدهار (الشيعة – الخوارج – المعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية) ،إذ سرعان ماكان تيار الإسلام العام يبتلع الوافدين، وهكذا قبل وضوح أثر تلك المذاهب الإسلامية فى تلك المناطق، وإن كان ذلك لا ينفى وجود بعض الآثار الباقية منها، ولكن ليس بصورة عامة أو أغلبية ، بل إن التشيع أو الخوارج لم يستطيعا أن يثبتا جذورهما، كما اختفى التعصب للمذاهب الفقهية، الذى كان شديد الوضوح فى بعض بلاد الشرق الإسلامى ، وقد انتشر مذهب الإمام الشافعى والامام مالك فى تلك الأنحاء، وعاش المذهبان جنباً إلى جنب فى تعاون مستمر .

ثم جاءت هجرة ثالثة، تمخضت عن ظهور مدينة أخرى وإمارة إسلامية جديدة ، حيث خرجت هجرة فارسية شيرازية من مدينة شيراز على الخليج العربى، وذلك طبقاً للروايات العربية، لحوليات كلوه، كانت بزعامة الحسن بن على وأبنائه الستة ، كما تروى لنا كتابات الشيخ محيى الدين الزنزبارى، الذى لخص كتاب «السلوى فى تاريخ كلوه» ؛ حيث يذكر أن هذه السفن كانت عددها سبع سفن، وأنها حملت صاحب مدينة شيراز وأبناءه الستة، وصحبهم، فارين بأنفسهم سلتمسين مهجراً جديداً يأوون إليه، وذلك فى عام ٣٤٦هـ / ٩٧٥م، وتألفت هذه الهجرات الجماعية من نحو الف ومائتى رجل، وزعيمهم وابنائه، ووصلوا إلى الساحل الشرقى لأفريقيا فى هذه السفن السبع، ونزلوا فى عدة أماكن على الشاطىء، ونجح الحسن ابن على الشيرازى فى تأسيس سلطنة إسلامية، امتدت إلى عدة موانى وجزر من بمبا إلى الشمال حتى سفالة فى الجنوب، وكانت كلوه عاصمة لهم، وكان لهذه الدولة الفضل فى قيام عدة مدن إسلامية على الساحل الشرقى لأفريقيا ، وإن الشيرازين المهاجرين كانوا من الشيعة، وأنهم فروا من وجه طغرل السلجوقى، الذى فتح شيراز عام ٤٤٧هـ / ١٠٠٠م، وهذا رأى يذكر أنها كانت فى الفترة من ١٠٥٥ - ١١٠٠، وليس عام ٩٧٥م، وهذا الرأى أقرب إلى الصحة.

واستقر السلطان الفار بمدينة كاسوا وتفرق ابناؤه على الساحل، كل ينزل بالموضع الذى يختاره، ويجد قبولا لديه، وهكذا كان ظهور هذا السلطان الفارسى بداية لظهور إمارة كلوه الشهيرة، وكان ظهورها رهنًا بهجرته (انظر احمد على احمد : كلوه تاريخها وحضارتها ، رسالة ماجستير ، معهد الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة (عام ١٩٨٣- رقم ٣٨٨٥ مكتبة جامعة القاهرة)، وقد تمت امارة كلوه فى عهد هولاء الشيرازيين، هؤلاء وتوطدت صلتها بزنجبار، وأنشىء بها مسجد، لازالت أثاره باقية حتى اليوم .

ورغم هذه الهجرة الفارسية فإنه لم ينتهى القرن الثالث والرابع الهجرى ، العاشر الميلادى إلا وكانت مدن الساحل قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية الإسلامية ، إذ ساعدت الهجرات العربية الإسلامية المتوالية على طمس معالم الهجرة الأولى الفارسية، وتحولت هذه إلى مدن عربية صرفة، طابعها العروبة الصرفة، والإسلام الخالص، وهذه المدن من الشمال إلى الجنوب هى مقديشيو ، براوة ، قسمايو ، بات ، لامو ، زنجبار ، موفية ، كلوه، موزمبيق سفالة، وقد انتشر الإسلام فيها جميعا، وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص .

وعلى هذا فإن استيطان العرب لأفريقيا كان يمتد حتى سوفالا سفالة فى موزمبيق،

جنوبى نهر الزمبيزى على الرغم مما قيل ما قبل من أن استيطانهم الحقيقى يرجع إلى القرن الثامن الميلادى ، على أثر نفى الزيدية كما سبق القول، بل إنه قيل إن استيطانهم يرجع إلى القرن العاشر اليلادى، وعلى كل حال فإنه مما لا ريب فيه أن الهجرات العربية اخذت تتوالى على شرق أفريقيا، وبصفة مستمرة من نواحى عمان والبحرين والإحساء واليمن وحضرموت والحجاز ، وأنهم انتشروا على طول الساحل الشرقى، وبنوا المدن العربية، التى امتدت من خليج عدن إلى مدار الجدى فى المنطقة، التى اطلق عليها جغرافيو العرب اسم بر الزنوج ، ولم يلبث هؤلاء المهاجرون أن أوغلوا فى أنحاء القارة الأفريقية المتآخمة للساحل؛ فشقوا طريقهم إلى كل البقاع الداخلية كما سبق القول ، بل إنهم وصلوا جنوباً إلى أقصى أنحاء القارة؛ حيث مستعمرة الرأس الأبيض، وكان سكان الساحل الشرقى فى هذه القارة وثيقى الصلة بالأرض، التى نشأ فيها الإسلام وظهرت منها أنوار دعوة الخلود والبقاء . وكما يقول أرنولد توماس: وعلى الساحل الشرقى بنى العرب تلك المدن السابق ذكرها؛ مما يدل دلالة قاطعة على قوة العقيدة الإسلامية وروح الجهاد الإسلامى فى سبيل الله، التى امتاز بها بحارة الخليج العربى وعمان .

وهكذا أصبحت المنطقة الشرقية للقارة الأفريقية توصف بأنها سلطنات عربية إسلامية فبجوار ممالك الطراز الإسلامى، كانت هناك سلطنات مشابهة فى مقديشيو، وعلى ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى، وفى الجزر المقابلة للساحل ، وقد نعمت الشعوب الأفريقية الإسلامية بالحكم الجديد، وتعاونت معه فى ظل الأخوة الإسلامية، وعلاقة المودة التى تجمع بين أخوة الإسلام فى رباط واحد .

ولمتابعة الحديث عن ظهور الإسلام والعلاقات مع شرق أفريقيا.. فإننا نجد أنه مع بداية القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، قدمت إلى الساحل الشرقى لأفريقيا هجرة عربية كبيرة من إقليم عمان، كان لها أثر كبير فى تاريخ تلك المنطقة؛ اذ تزعم هذه الهجرة سليمان بن سليمان بن مظفر النيهانى صاحب عمان، واستقبله العرب فى بات (بيت) استقبالا طيبًا، وتزوج سليمان من أميرة سواحيلية هى ابنة اسحق من سلالة الشيرازيين الفرس حكام كلوه، وبعد إتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم لسليمان، الذى أصبح أول حاكم من أسرة بنى نبهان فى الساحل الشرقى لأفريقيا ، بل إنه يذكر أن سليمان تزوج ابنة اسحق حاكم باتا وليس كلوه ، ومن ثم ورث الملك وأصبح أميرا شرعياً ، ثم نقل بلاطه من عمان إلى شرق أفريقية ، وتأسست الأسرة النبهانية فى مدينة باتا Pata، وستقوم هذه الامارة

فى ظلهم بدور بارز فى تاريخ الإسلام فى شرق أفريقيا ، ومن هنا فإنه لم يكد القرن الثالث عشر الميلادى ينتصف، حتى كانت المدن الإسلامية قد انتشرت على طول الساحل الشرقى لأفريقيا من سواكن شمالا حتى موزمبيق جنوبا، اشتغلت هذه المدن بالتجارة فى المحل الأول ، ولكن بجانب هذا كانت الدعوة إلى الإسلام تمثل السبب الأساسى لكثير من الذين هاجروا إلى تلك الأماكن، ولم تكن التجارة هى الهدف الأول والأخير، كما حاول أن يصور ذلك كتاب الغرب فى عديد من مؤلفاتهم ، ولكن هذه المدن بجانب كونها مراكز تجارية كانت مركزاً لحياة إسلامية قوية ، وأماكن متقدمة، تتجمع فيها المؤثرات الإسلامية لتنقل إلى ما ورائها، وليس ببعيد أن يكون الفقهاء ورجال العلم قد اقتفوا أثر التجار، غير أن الثقافة العربية فى هذه المرحلة لم تتضح معالمها بصورة كافية .

إضافة إلى أن الأسرة النبهانية استطاعت أن تضم إلى مناطق نفوذها معظم الساحل الشرقى لأفريقيا، وذلك فى أواخر القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، فضمت إلى حكمهم قسمابو ، براوة ، مقديشيو، وظلت الأسرة النبهانية تحكم بيت حتى عام ١٧٤٥م .

وإن كانت هناك آراء تذكر أن داخل أفريقيا قد بقى، دون تمكن العرب من الوصول إليه والمخاطرة بالدخول إلى منطقة الغابات حتى القرن الثامن عشر الميلادى؛ ذلك لأنه من المعروف أن رؤساء القبائل الأفريقية هم الذين كانوا يقومون بالوساطة التجارية، ولم يحدث على ذلك تعمق للعرب إلى الداخل إلا بعد إنشاء السلطنة العربية فى زنجبار، كذلك فإن القرن الخامس عشر الميلادى قد شهد هجرة كبيرة قام بها مهاجرون عرب إلى شرق أفريقيا من حضرموت عن طريق جماعة إسلامية، تتألف من أربعة وأربعين عربيا ، نزلوا فى مكان بربرة، ثم انتشروا فى بلاد الصومال، يدعون إلى الإسلام، وقد شق أحد هؤلاء المهاجرين واسمه الشيخ ابراهيم ابو زرباى طريقه إلى هرر حوالى عام ١٤٣٠م، واستطاع أن يحول كثيراً من الوثنيين، سكان ذلك الإقليم إلى عقيدة الإسلام، ولا يزال قبره فى تلك المدينة موضع تعظيم وتبجيل من سكان هذه المدينة .

وهكذا تدفقت الهجرات العربية عبر تلك القرون إلى شرق أفريقيا، وكان لها أثر كبير فى انتشار رسالة الإسلام على نطاق واسع ، بل امتد أثر هذه الهجرات إلى الجنس واللغة فأصبحت كثيرا من مناطق شرق القارة عربية الدم واللسان، وهناك حقيقة تاريخية ثابتة، هى

أن فيض المهاجرين العرب كان وفيراً فى الشرق الأفريقى، فتعربت بعض تلك الأجزاء (ارتيريا – الصومال ، اللغة السواحيلية جنوبا) وهكذا انتشر الإسلام عن طريق تلك الهجرات، وبناء عليه كان ينبغى أن تصبح الحبشة مثلاً بلاد عربية إسلامية صرفة، وقد أوشكت أن تكون كذلك، فقد قامت فيها إمارات وممالك عربية إسلامية مسلمة العقيدة والدين عربية اللسان ، ولكن الاستعمار الأوربى والبرتغالى والقوى الاستعمارية الأخرى الحديثة، عملت على أن تصبح الحبشة هى القوة السائدة فى تلك البقاع، وهكذا لم تتمكن راية الإسلام أن تحقق أهدافها ١٠٠٪ فى الحبشة.

* * *